جامعة تلمسان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

دروس في نحو الاختلاف في المشرق العربي

ماستر 1/ سد 2 – لسانيات عربية

إعداد الأستاذ الدكتور عبد الجليل مصطفاوي.

*****

المحاضرة4: منهج الزمخشري في الدرس النحوي.

لقد سعى علماؤنا الأجلاء، منذ بداية تفكيرهم في وضع قواعد وقوانين وأصول تحمي اللغة العربية واللسان العربي من اللحن والفساد، إلى التفكير أيضا في جعل النحو العربي– الذي هو عمود العربية وسنامها– أداة طيِّعة في أيدي المتعلمين الراغبين في فقه العربية، ومعرفة خصائصها وأسرارها، واستكناه أغوارها وعجائبها.

ومن هؤلاء الأعلام أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري(تـ538هـ) المنتمي مذهباً إلى مدرسة بغداد. فقد كان يدرك أنَّ المقصود من علم العربية هو " إقامةُ اللسان ومجانبةُ الخطأ في الإعراب، واللحن في القول؛ ليُتوسَّل بذلك إلى فهم معاني كلام الله جلَّ شأنه، والإحاطة بأسرار تنزيله "[1].

1–بين يدي كتاب(المفصَّل في صنعة الإعراب):

يقول الزمخشري:" ومن لم يتَّقِ الله في تنزيله فاجْتَرَأَ على تعاطي تأويله وهو غير مُعرب فقد ركب عمياء وخَبَط خَبْط عشواءَ، وقال ما هو تقوُّل وافتراء وهُراء، وكلام الله منه بَراء. وهو المَرقاةُ المنصوبة

[1]– المفصَّل في شرح أبيات المفصَّل للنعساني، بهامش المفصَّل في صنعة الإعراب للزمخشري، ص18–19.

إلى علم البيان المطَّلعِ على نكت نظم القرآن، والكافلِ بإبراز محاسنه، والموكَلِ بإثارة معادنه؛ فالصادُّ عنه كالسادِّ لطرق الخير كيلا تُسلك، والمريدِ بموارده أن تُعاف وتُترك"[2] .

لقد كان علم العربية سهلا في بداياته، ولكنه مع مرور الزمان وابتعاد العرب عن العصور الأولى وثراءها ونَضارتَها غمض علم العربية ، واحتاج الناس والمتعلمون إلى طرق جديدة لفهم قضايا النحو ومسائله. ومن ثَمَّ وجدنا الزمخشري ينبري لوضع منهج جديد للتأليف النحوي ومعالجة أبواب النحو العربي الذي تشعبت قضاياه، وتنوعت فيها آراء العلماء، فجسَّد ذلك في كتابه الذي أسماه (المُفصَّل في صنعة الإعراب) ضمَّنه رؤية جديدة لقواعد اللغة العربية.

ولقد سار هذا الكتاب بين الناس، وأقبل عليه الدارسون والمتعلمون مشرقاً ومغرباً، وتلقَّفه الشُّراح في عصور متوالية. وقد أحصى بروكلمان واحدا وعشرين شرحاً..ومن أشهرها شرح أبي البقاء بن يعيش(تـ643هـ)[3]. يقول الدكتور علي بوملحم محقق الكتاب:" وإذا رغبنا في معرفة سبب سيرورة هذا الكتاب وخلوده وجدناه في أسلوبه المحكم الذي ينماز بالشُّمول والدقة والوضوح"[4].

لقد اطلع الزمخشري على تصنيفات سابقيه بصريين وكوفيين، وعرف آراءهم واختلافاتهم ومذاهبهم في التعامل مع المادة النحوية؛ فاختار لنفسه منهجاً جديداً ورؤية خاصة به. فقد توسَّع في الشواهد والأمثلة من القرآن والحديث والشعر. يقول:" ولقد نَدَبني ما بالمسلمين من الأَرَب إلى معرفة كلام العرب، وما بي من الشفقة والحَدَب على أشياعي من حَفَدة الأدب لإنشاء كتاب في الإعراب، محيطٍ بكافة الأبواب، مُرتَّبٍ ترتيبا يبلُغ بهم الأمد البعيد بأقرب السعي..فأنشأت هذا الكتاب المترجَم بكتاب(**المفصَّل في صنعة الإعراب**) مقسوماً أربعة أقسام: القسم الأول في الأسماء، القسم الثاني في الأفعال، القسم الثالث في الحروف، القسم الرابع في المشترك من أحوالها. وصنَّفتُ كلاًّ من هذه الأقسام تصنيفاً، وفصَّلت كل

---

[2]– المفصَّل في صنعة الإعراب للزمخشري، ص19.

[3]– ينظر مقدمة المفصَّل، ص5.

[4]– نفسه، ص8.

صنف منها تفصيلا، حتى رجع كلُّ شيء إلى نصابه، واستقرَّ في مركزه. ولم أدَّخر فيما جمعت فيه من الفوائد المتكاثرة، ونظمت من الفرائد المتناثرة **مع الإيجاز غير المُخلّ، والتلخيص غير المُملّ**"[5].

2- محتوى كتاب المفصَّل:

إذا تناولنا القسم الأول الخاص بالأسماء نجد تقسيماً لم نألفه في كتب النحاة المتقدمين؛ فقد قسمها إلى مُعربة ومبنية؛ فتناول في المعربة المرفوعات والمنصوبات والمجرورات، وتناول المشتقات وصيغ الأسماء(الثلاثي والرباعي والخماسي)، وأنواع المصادر، والاسم المنسوب، والمذكر والمؤنث، والمعرفة والنكرة، والجموع. وجديرٌ ههنا أن نشير إلى أنه قد جمع بين أبواب في النحو وأبواب في الصرف كالتصغير والنسبة واسم الآلة والصفة المشبهة وغيرها.

وتناول في قسم الأفعال كلَّ ما يتصل بالفعل من التعدّي واللُّزوم، والبناء للمجهول، وأفعال القلوب، والأفعال الناقصة، وأفعال المقاربة، وفعلي المدح والذم، وفعلي التعجب. وتناول في قسم الحروف كل أنواع الحروف في العربية كالعطف والجرِّ والنداء والتفسير، وغيرها. أما القسم الأخير الذي وسمه (المُشترَك) فتناول فيه قضايا الدرس الصوتي كالإمالة، والوقف، وزيادة الحروف، والاعتلال، والإدغام، وزيادة الحروف، وغيرها.

ويمكن القول أنه وضع منهجا غير مسبوق؛ فقد أفاد من ذلك كل النحاة المتأخرين، إذ اعتمدوا منهجه في التقسيم والتبويب والترتيب.

3- نماذج من الكتاب:

3-1- ذكر في باب المثنَّى أن الجمع قد يثنَّى " على تأويل الجماعتين والفرقتين وأنشد أبو زيد:

لنا إبِلانِ فيهما ما علمتمُ

وفي الحديث: مثل المنافق كالشاة العائرة بين الغنَميْن، وأنشد أبو عبيد:

لأَصبحَ الحيُّ أوباداً، ولم يجدوا عند التفرُّق في الهيجا جِمالينِ

[5]- المفصَّل في صنعة الإعراب، ص19-20.

وقال أبو النجم: بين رِمَاحَيْ مالكٍ ونَهشَلِ

وتُجعل الإثنان على لفظ الجمع إذا كانا متّصلين كقولك: ما أحسن رؤوسُهما، وفي التنزيل﴿ فَاقْطَعُوا أَيْدِيهِمَا﴾، وفي قراءة عبد الله﴿ أَيْمَانَهُمَا﴾ وفيه﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾. "[6]

3-2- ذكر في أثناء حديثه عن التذكير والتأنيث أنَّ المؤنث ضربان: حقيقي" كتأنيث المرأة والناقة ونحوهما ممَّا بإزائه ذكَر في الحيوان ، وغير حقيقي كتأنيث الظلمة والنعل ونحوهما مما يتعلق بالوضع والاصطلاح. والحقيقي أقوى؛ ولذلك امتنع في حال السعة جاء هندٌ، وجاز طلع الشمسُ، وإن كان المختار طلعتْ. فإن وقع فصل استجيز نحو قولهم: حضرَ القاضيَ اليومَ امرأةٌ. قال جرير:

لقد وَلدَ الأُخَيْطِلَ أمُّ سَوْءٍ

وليس بالواسع، وقد ردَّه المبرِّد. واستحسن نحو قوله تعالى﴿ فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، وقوله﴿ وَلَوء كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. هذا إذا كان الفعل مسندا إلى ظاهر الاسم، فإذا أسند إلى ضميره فالحِق العلامة. وقوله: ولا أرضَ أَبْقلَ إبْقالَهاَ

مُتأوَّل بالمكان"[7] .

3-3- وذكر في قسم الأفعال وجوه(كان) فقال:" و(كان) على أربعة أوجه **ناقصة** كما ذكر، و**تامة** بمعنى وقع ووجد كقولهم: كانت الكائنة والمقدور كائنٌ، وقوله تعالى﴿ كُنْ فَيَكُونُ﴾، و**زائدة** في قولهم: إنَّ من أفضلهم كان زيداً وقال:

جِيادُ بني أبي بكرٍ تَسامى على كان المسوَّمةِ العِرابِ

..وقوله تعالى﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ يتوجَّه على الأربعة، وقيل في قوله:

بِتَيْهاءَ قَفْرٍ والمطِيُّ كأنها قَطا الحَزنِ، قد كانت فراخاً بيوضُها

أي كان فيه بمعنى صار"[8] .

---

[6]- المفصَّل، ص232-233.

[7]- نفسه، 247-248، وينظر شرح ابن عقيل، ج1 ص480.

3-4- وحينما حرفي الاستفهام الهمزة وهل قال:" والهمزة أعمُّ من تصرُّفاً في بابها من أختها. تقول: أزيدٌ عندك أم عمرٌو؟ و أزيداً ضربتَ؟ و أتضرِبُ زيداً وهو أخوك؟ وتقول لمن قال لك مررتُ بزيدٍ: أبزيدٍ، وتُوقعها الواو والفاء وثمَّ، قال تعالى﴿ أَوَ كُلَّمَا عَهَدُوا عَهْداً﴾، وقال تعالى﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾، وقال تعالى﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾. ولا تقع هل في هذه المواضع[9] .

3-5- وذكر حروف القسم وخصائصها فتوسع في ذكر مميزات الباء قائلاً:" والباء لأصالتها تستبدُّ عن غيرها بثلاثة أشياء؛ بالدخول على المُضمر كقولك: بِهِ لأَعبدنَّهُ، وبكَ لأَزُورنَّ بيتَك، وقال[10]:

فلا بكِ ما أبالي

وبظهور الفعل معها كقولك: حلفت بالله، وبالحلف على الرجل على سبيل الاستعطاف كقولك: بالله لمَا زرتني، وبحياتك أخبرني، وقال ابن هَرْمَةَ:

باللهِ ربِّكَ إن دخلتَ فقلْ لهُ هذا ابنُ هَرْمَةَ واقفاً بالبابِ " [11].

*****

إن من يقرأ كتاب المفصَّل يجد لمسات المدرسة البغدادية التي تتميز كتاباتها- ولاسيما أعلام القرنين السادس مثل ابن الأنباري والرّضي الأستراباذي وابن يعيش- بالسهولة والسلاسة في بسط أبواب النحو وقضاياه. وكان الزمخشري وفياً لهذا الاتجاه؛ فقد كان أسلوبه يتميز بالوضوح في عرض مادته العلمية مدعومة بالشواهد المتنوعة من القرآن والحديث والشعر العربي.

---

[8]- نفسه، ص351-352.

[9]- نفسه، ص437.

[10]- وتمامه: أَلاَ نَادتْ أُمامةُ باحتمالٍ لِتُحزِنَني، فلا بكِ ما أبالي.

[11]- المفصَّل، ص485-486.